نصف قرن على مجزرة تل الزعتر ...

كلمات وشهادات موثقة 15 آب 1976~ 2026

تقول الحكاية إن الرشاشات ذابت مقابضها في أيدي المقاتلين في «تل الزعتر»، فوق تلك التلة المكونة من براكسات التنك وسقوف الزينكو شرق بيروت، حيث كانت تقوم «عاصمة الفقراء». سكنها العمّال والكادحون والمياومون من جيش البروليتاريا الذي كان يرفد المدينة كل يوم بالوقود البشري في مصانعها ومعاملها ويغذي طاقتها بلحمه الحي وعرق جبينه لينام متعباً في المساء، وقد امتصّ سادتها وساستها فائض قيمة عمله وتعبه ودمه. يقرّر الفاشيون في حينها من اليمين اللبناني العنصري أن لا مكان فوق تلك الأرض للاجئ، وأن الفلسطيني الطيب هو الفلسطيني الميت، ذلك الفلسطيني الذي تداولته الميليشيات اليمينية ذلاً وهواناً بعد «المكتب الثاني» الذي كان ينكل به عند دخوله وخروجه إلى جحيمه اليومي في مخيمات الصفيح، بعدما هجّره أعتى وأشرس مشروع استعماري من أرضه وبيته وحقله ومدينته وقريته في عام النكبة. حصار طويل فصمود أسطوري ثم مجازر يندى لها الجبين، كأنّ ميكانيزمات الإبادة تطبّق بحذافيرها على كل من يقول «لا» بوجه سادة هذا العالم المستكبر وأذيالهم، وأولئك الذين حوصروا وقاتلوا ثم ذبحوا بعد إعطائهم الأمان قبل نصف قرن داخل المخيم وعلى أبوابه هم من تلك الفئة القليلة التي نستذكرها اليوم لأنها حملت لواء الرفض للمذلة وقاتلت حتى آخر الطلقات، كأن النجدة القادمة من تخوم «مستديرة الصياد» هي النجدة ذاتها التي انتظرتها أمهم في فلسطين من جحافل جيوش العرب. كأن عهد الأمان يشبه ما أعطاه العدو لقوافل النازحين والأطفال والنساء عند المعابر وفي أروقة المستشفيات في غزة ليبيدهم عن آخرهم. كأن مصيدة الماء والقتلى المكومين فوقه هي المصيدة ذاتها.لكن بعد نصف قرن وخمسين قتيلاً فوق الماء، سيبقى درس الرفض ذاته حتى نهاية التاريخ: ها قد أزف الوقت، واكتملت كربلاء، فلتكن كما أرادها الأقوياء. (كلمات)

*لمحة عن المخيم

■أنشئ مخيم تل الزعتر عام 1950، وهو يقع في المنطقة الشرقية الشمالية من ضواحي بيروت. وتعتبر هذه المنطقة التي تحيط بالمخيم من أهم المناطق الصناعية في لبنان. كانت تضم عام 1968 حوالى 29% من عدد المعامل في لبنان، و22% من عدد العمال، و23% من رأس المال الصناعي اللبناني.

■تبلغ مساحة المخيم الإجمالية 295 دونماً. بلغ عدد سكان المخيم عام 1976 حوالى 17 ألف فلسطيني. وكان يضم عدداً كبيراً من اللبنانيين، وخاصة من أهل الجنوب وبعلبك.

■بدأ الحصار الفعلي للمخيم يوم 12 آذار (مارس) 1976، وبدأ الهجوم العسكري اليميني عليه صباح يوم 22 حزيران (يونيو) 1976، وتعرض لـ 72 هجوماً عسكرياً وصمد لـ52 يوماً.

■سقط على المخيم ما يقارب ستين ألف قذيفة، ودمرت معظم منازله من براكسات التنك وألواح الزينكو في الأيام الأولى من الهجوم.

■مات تحت أنقاض أحد الملاجئ المنهارة قرابة 400 نسمة.

■ أقام اليمينيون مذبحة مروعة يوم إخلاء المخيم، تحت رعاية الصليب الأحمر الدولي، ذهب ضحيتها ما بين 1500 إلى 3000 شهيد أو مفقود من المدنيين العزل والمقاتلين.

*شهادات لبعض الناجين

مصيدة المياه - عدنان عقلة، «جريدة المحرر»، آب/ أغسطس 1976.

لم يبق سوى قسطل وحيد قريباً من مناطق الفاشيين، وكانت المياه تنقطع عنه طوال ساعات النهار وقسماً من الليل. وكان الناس يقفون في الصف قرب القسطل منذ الساعة السادسة مساء ينتظرون مجيء المياه التي قد تأتي في الساعة العاشرة، أو في منتصف الليل لتنقطع من جديد في الساعة الرابعة صباحاً. وبالطبع، كان الفاشيون يعرفون مصدر المياه وقد جعلوا منه مصيدة للناس. في إحدى الليالي، جاءوا بعشرين شهيداً مرة واحدة من الذين ينتظرون قطرة الماء! العدس يحتاج إلى مياه ليُسلق، وحين لم يكن في استطاعة الناس أن يأتوا بالماء، كانوا يقضون ذلك اليوم بلا شرب وبلا أكل. توفي أكثر من خمسين طفلاً نتيجة اختفاء الحليب والماء.

مصادر الطاقة – سعاد صالح من سكان المخيم

في أيام الحصار الأخيرة، قطعت الكهرباء فكنّا نصنع الشمع للمستشفى، وحصلنا على الشمع الخام من مستودع قريب وكان ابني يحضره ونذوبه على النار ثم نصبّه في علب اللحم والسردين ونضع فيه خيطاً. وبعد جفافه، نقص العلبة ونخرج الشمع منها. وأخيراً تقدمت صناعتنا، فصرنا نحضر صور الأشعة ونلفّها ونربطها ثم نصبّ الشمع فيها، وبعد فكّها نحصل على شمعة جميلة. وكنا نتعذب كثيراً للحصول على الكاز في بادئ الأمر وازداد الأمر صعوبة بعد أن نفد الكاز، فصرنا نبحث عن بقايا الخشب في المناشر. وأخيراً، خطر في بالي أن أرسل الشمع الخام إلى الفرن في المخيم فوافق العامل هناك بعدما علم الهدف من ذلك. وكنا ننتج في اليوم من 50 إلى 60 شمعة.

التبغ – أحمد القمح من سكان المخيم

كان الدخان مفقوداً تماماً. أنا كنت أدخن الأزهار. فقد جمعت كل ما حرقته القذائف من ورد وقرنفل وغاردينيا وفل، كنت أفتته وألفه بأيّ ورق عادي. كان الشباب يقصدونني قائلين إن لديّ أجود أنواع الدخان المصنوع.

الطبابة - د. عبد العزيز اللبدي، د. يوسف العراقي، طبيبا الهلال الأحمر الفلسطيني، من وقائع المؤتمر الصحافي - 13 - 8- 1976.

الأطباء لم يتجاوز عددهم الأربعة: الدكتور عبد العزيز اللبدي، والدكتور يوسف العراقي، وطبيبان سويديان. (بلغ عدد الجرحى الذين استقبلناهم خلال 53 يوماً حوالى ثلاثة آلاف جريح اضطررنا إلى نقل المستشفى بعدما أصبح غير صالح ومسيطراً على كافة مداخله بالنيران، وتوزيع إلى 14 نقطة إسعاف في مختلف الأماكن السكنية). كنا ننتقل من نقطة إلى أخرى تحت وطأة القصف والنيران لإنقاذ الجرحى. دمروا مستودع الأدوية بقذائفهم. استخدمنا الشراشف والقمصان وقماش الديولين بدل الشاش. اعتمدنا الطريقة الأميركية لمعالجة الجروح بإبقائها مفتوحة. جرح معظم الممرضين والممرضات أثناء تأدية عملهم. واستشهدت ممرضة، وكانوا جميعاً يتبرّعون بالدم. كنا نعالج مختلف الجروح بالماء والملح، والإصابات التي في المعدة والرأس، كان يموت أصحابها بسبب عدم وجود أدوية ولا غرفة عمليات صالحة ولا أدوات تعقيم

مشاهد من المعركة - من شهادة مقاتل رفض الكشف عن اسمه ـ شهادته مسجّلة

»فتح» كانت في مخيم جسر الباشا والقلعة وقرب مدرسة جنين التابعة للأونروا وفي تلة المير التي نصبوا فوقها رشاشاً من عيار 22 ملم، إضافة إلى رشاش للصاعقة من عيار 14.5. «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» كانت متمركزة في دير الراعي الصالح الذي يشرف على محور سن الفيل وحرش تابت، أو محور معمل سليك الذي ما زال قائماً حتى اليوم. أما القيادة العامة، فتموضعت في التلة المقابلة لبلدية الدكوانة، وجبهة التحرير العربية مقابل معمل الدباس. أما الصاعقة، فقرب مصانع المكلس والمنصورية، و «الجبهة الديمقراطية» رابطوا عند محمر الخروبة ومحور الكنيسة الأنطونية وشارك مقاتلو «الحركة الوطنية اللبنانية» على جميع المحاور.

كانت إذاعة «الثورة» تناشدنا بالصمود وتقول لنا إنّ القوات المشتركة صارت عند مستديرة الصياد وإنهم قادمون لنجدتنا عبر خرق من محور الشياح عين-الرمانة. كان عدد المقاتلين المدربين حوالى 550 مقاتلاً والعتاد الموجود مدفعان من طراز م.ط ومدفع من عيار 14.5 ومدافع هاون 60 و82. عدد القوات التي

هاجمتنا تخطى 7 آلاف مقاتل ومعهم مرتزقة فرنسيون من حوالى 80 شاباً فرنسياً كانوا متمركزين خلف حاجز للقوات المشتركة وتبجّحوا في حديث موثق لوكالات الصحافة بأنهم قادمون في حملة صليبية لتطهير لبنان من الشيوعيين.

كان الفاشيون مجهزين بدبابات ومدافع عيار 155 وصواريخ على أنواعها، إضافة إلى غطاء مدفعي من الجيش السوري. كانوا قد أسقطوا في 24 تموز (يوليو) بناية على رؤوس المحتمين في ملجأ أسفلها بقذائف من عيار 106 و155، ما أدى إلى جرح واستشهاد 550 شخصاً، إضافة إلى مجزرة في ملجأ جورج متى. ظللنا نسمع استغاثات النساء والأطفال لأيام عدة. هاجمونا صباح ذلك اليوم من كافة المحاور واستطاعوا الوصول إلى أطراف المخيم ودخلوا إلى بعض الأحياء، ودارت اشتباكات عنيفة مع القوات المشتركة، وقد أبلى جميع المقاتلين حسناً في الدفاع عن المخيم لا سيما أبطال «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» الذين استشهدوا جميعاً. أذكر منهم الرفاق فتحي عجاوي، وصبحي معروف وعدنان الخطيب، والكثير من عناصر الفصائل الأخرى انسحب عبر الجبال.

الفسخ – فاطمة محمود من سكان المخيم

عندما خرجنا من المخيم نهار الأربعاء في الليل مع من نزحوا من جيراننا اللبنانيين، أخذوا جميع الرجال الفلسطينيين وزوجي بينهم وبقينا حتى اليوم التالي الخميس الساعة الثامنة مساء. أخذوا الشباب وصفوهم صفاً واحداً ووجوههم للحائط وبدأوا يضربونهم بالمدقات على ظهورهم حتى وقعوا على الأرض مغمياً عليهم وأمروا البعض بأن يركع والبعض الآخر أن يقف وظهره إلى الحائط وأشعلوا فيهم النيران، ورشوا الراكعين أمام الواقفين بعدما وضعوا قضبان الحديد في النار حتى احمرّ لونها فوضعوها بشكل صليب على بطونهم حتى يموتوا واقفين. وبعدها ربطوهم بحبال وربطوهم بالسيارات وأخذوا يطوفون بهم الشوارع والنساء في تلك المنطقة يزغردن لهم ويغنين.

بقر بطون الحوامل – فوزية شحرور من سكان المخيم

نزلنا إلى الدكوانة وعلى طول الطريق، كانت تنتشر حواجزهم وفي كل حاجز كانوا يأخذون الرجال ويكيلون الشتائم للنساء ويقومون بضرب من يختارون فكانوا يقتلون الرجال أمامنا وكذلك بعض النساء. وعندما سألوني عن جنسيتي قلت لهم إنني لبنانية حتى استطعت النجاة منهم. تابعت سيري قليلًا مع أهلي وإذا نحن أمام منظر لا يتصوّره عقل: إذ قام الفاشيون ببقر بطن امرأة حامل في شهرها الأخير، فخرج الطفل أمامنا من بطن أمه، وماتت المرأة فوراً وذعر الجميع ولم يستطع أحد النظر إلى الخلف لهول وبشاعة المنظر.

الطعام – عجوز من سكان المخيم رفض الكشف عن إسمه

كنا نأكل العدس ولا شيء غير العدس. نأكله إذا توفر الماء وإلا بقينا من دون أكل. وقبل الحصار الفعلي، كنا نشتري الأرز والسكر والطحين من أشخاص يأتون من خارج المخيم بأسعار مرتفعة جداً. لكننا كنا مضطرين لذلك. فالحصار لم يكن فقط في الشهرين الماضيين. نحن عانينا من الحصار طوال 16 شهراً ولم يكن يدخل تموين إلى المخيم إلا في بعض حالات الانفراج. وهكذا بقينا على العدس طوال 52 يوماً وقررنا أن نأكل العدس حتى لا يبقى عدس. فقد كنا مصمّمين على القتال حتى نموت أو نعيش حياة الأحرار.

شهادة مراسلة أجنبية - ريتا بورينا، من وكالة الصحافة الإيطالية.

رأيت الرجال في تل الزعتر، يموتون تحت الشمس، في طرقات المخيم الضيقة، في الساحات أمام الجامع على عتبات البيوت، يموتون على حافة المجاري... في كل مكان. كانت النساء يصلن بيروت باكيات. على مستديرة أمام المخيم، طلبنا الإذن بالدخول قالوا: ممنوع. كان هنالك كثير من المسلحين، جنود بركات وسيارات محملة بأشياء مختلفة، ماكينات خياطة، راديوات تلفزيونات ومقاعد مكوّمة فوق سطح السيارات، كلها تأتي من تل الزعتر. بعد الانتصار والمجزرة، كانت لحظة النهب.

فجأة بدأ الرجال يطلقون النار في الهواء. المشاجرات انفجرت بين هؤلاء الذئاب. في مركز النمور الأحرار في جسر الباشا، أعطونا دليلاً اسمه ديان، كان أعور، وكان هذا الاسم يسرّه. آخر دعا نفسه رومل، ديان سلمنا لاثنين فاشيين آخرين. عدنا إلى الساحة في سيارة وأخذنا الطريق نحو المخيم. جثة ترتمي في الأرض. لم أستطع أن أحدق بها.

كان ينقصها شيء ما. كانت في منتصف الشارع والسيارات تمر فوقها. دخلنا المخيم بين الأنقاض. في المخيم، كانت تتحرك أشكال غريبة، تغطي وجهها بكمامات جراحين، كانوا يدخلون البيوت ويخرجون منها محمّلين علب الصابون، أواني زجاجية، فوطاً وأباجورات، كانوا يضعون غنيمتهم على العتبة ويعودون ثانية للتنقيب... اليوم يوم النهب في تل الزعتر. أنظر إلى الأرض، أرى جثة امرأة عيناها منتفختان. نمشي نحو ساحة صغيرة، كانت مدرسة. نرى رجالاً مسلحين. مرافقونا يحيّونهم قائلين: «يعطيك العافية... الله معك.«!

على بعد أمتار، جثة لرجل وأخرى لطفل. كانتا تتحلّلان تحت الشمس. الذين معي لم يكونوا يرون شيئاً، كانوا يبدون أنهم مرتاحون، يثرثرون ويبعثرون التحيات، كنت الوحيدة التي أرى. هناك المستشفى. من الطابق الأول، نرى المخيم سطوحه مهدمة، منهارة ورائحة الموت مباشرة قوية، جثث الأمس تحلّلها الشمس القوية

اليوم. نترك الجامع ونمشي في طريق ضيقة. الجثث في كل مكان، أكثر من أن تحصى، الرجال ذوو الكمامات يمشون فوقها. وأيديهم محملة... نأخذ السيارة ثانية ونقطع طريقاً أعرض ترتمي على جانبيها الجثث، على اليمين حفرة، الفاشستي الذي يجلس إلى جانبي طلب مني أن أنظر.

كثير من الجثث الممتدة ممن قتلوا بالأمس كما قال لي الفاشستي، ويضيف بأنه يوم أمس قتل 40 شخصاً ليثأر لأخيه. نتقدم في خط متعرج، بين الجثث. يقترح الفاشستي الذي يقود السيارة أن نمرّ فوق واحدة منها، كنا نقول: لا، رجاءً! في كل مكان، رجال مسلحون مع غنائمهم. أحدهم يجلس فوق حقيبة ويحمل بين يديه كأسَ بطولة... الفاشستي يقول: «ذكرى من تل الزعتر...» الشخص الذي يجلس جانبي يقول: «الحرب قاسية» وأنه لا يرى عائلته، ولكن بما أنهم قد كسبوا المعركة كما ترون سيداتي وسادتي، لم يعد من فلسطينيين في تل الزعتر. الصحافة هنا من أجل أن تثبت ذلك، ويفسر لنا كيف تقدموا، جعلوا الناس يخرجون من الملاجئ والبيوت المهدمة ثم فصلوا اللبنانيين عن الآخرين. ثم فصلوا الفلسطينيين إلى قسمين: النساء والأطفال على جهة، والرجال للقتل.

*المراجع: هاني مندس، «طريق تل الزعتر»، «مركز الأبحاث الفلسطينية»، 1977، وقد أعيدت طباعة الكتاب بإشراف وتوقيع المؤلف في مكتبة «كتابي»، الحمرا الأربعاء الفائت، في ذكرى نصف قرن على المجزرة.